الأستاذ محمد قديح

مفهوم التدريس بين الأمس واليوم

يبقى الماضي جميلاً بكل تفاصيله: ذكرياته وأحلامه وطموحاته وعصاميته ، هو الإرث الذي كان الجسر الذي عبرنا من خلاله الى حاضرنا المعاصر . وهو أيضاً القارب الذي مخر عباب التاريخ ليوصلنا الى المستقبل الواعد بمشيئة الله.

ومن خلاله بأناسه وتواريخه نحاول أن نمارس الإصغاء، لنرى مآثر من عاصروا هذا الماضي من رؤى، وأن نرصد نظرة جيلهم للتعليم بين الأمس واليوم .

سنتطرق في هذه العجالة الى :

- المدارس قديماً.
- مستوى التعليم .
- علاقة الطالب بالمعلم .
- شخصية المعلم.
- حرص الآباء آنذاك على إلحاق ابنائهم بالدراسة .
- التشابة والاختلاف بين المدرسة القديمة والمدرسة الحديثة .

1- المدارس: منذ أن تمَّ بناؤها هدفت لنشر العلم وتلقيه ، ومثلت المكان المفضل لدى الكثير من الطلاب الذين يسعون لتحصيل العلم والمعرفة ويستطيع بناء الصداقات و...

- المدارس قديماً:
- الحلقات الدراسية: تتكوّن من مجموعة من الطلاب يتجمّعون حول المعلم الذي يعمل على تدريسهم، وتعدّ هذه الحلقات بداية انتشار التعليم.

مُدرّس الحلقة الدراسية كان يسمى (الشيخ)، وذلك لأنّه كبير في السن، وحافظٌ للقرآن الكريم، وعارف لمجالات الدراسة المختلفة اللغوية والعلمية. وقد حرص الناس على إلحاق أبنائهم في الحلقات الدراسية، والتي كانت تعقد في منزل الشيخ، أو في المسجد..

بدأ بناءغرف خشبية مكوّنة من جذوع، وأغصان الأشجار القويّة،و تخصيصها للتدريس، وتزامن انتشارها مع استخدام الورق، ودراسة المؤلفات التي ألّفها العلماء، والأدباء العرب، فاعتمد التدريس على أن يقرأ الطلاب قراءة صامتةً، ويركّزوا في محتوى النص الذي أمامهم، ثم يسألهم المعلم عن الأفكار، والمعلومات، التي استوعبوها من قراءتهم.

مع ازدياد العلوم، واتساع آفاق المعرفة، تمّ التفكير ببناء المدارس، والغرف الصفية من الحجارة والطين حتى تتمكّن من استيعاب أعداد أكثر من الطلاب، وتتصف بالمتانة وتتحمل تأثيرات العوامل الجوية المختلفة، وتكوّنت المدرسة الواحدة من غرفة أو غرفتين للتدريس، ولم يعد الطالب يدرس الموادّ التأسيسيّة فقط، وأطراف من العلوم، بل تمّ تحديد المراحل الدراسية بشكل دقيق، وصار على الطالب اجتياز كلّ مرحلة بنجاح، حتى يحقّق تقدماً في دراسته، واستُبْدِل الشيوخ بمعلميّن متخصصين أكفاء للتدريس..

- المدارس حديثاً :

انتشرت المدارس التي تحتوي على أبنية تتألف من عدة طوابق ، وكل طابق يحتوي على عدد كبير من الغرف ، وشهدت إقبالاً من الذكور أولاً ومن ثم الذكور والإناث .

حوت هذه المدارس اضافة الى غرف التدريس غرفاً للمهارات وأخرى لمواكبة التطور في أساليب وطرق التعليم كغرف الحاسب الآلي وغرف تنمية مهارات الأطفال التي نجد بداخلها مكاناً مخصصاً لتناول الطعام، وملاعب كبيرة تنمي مهارات التلاميذ الرياضية .

المدارس الحديثة تساعد كثيراً في تربية وتنشئة الطفل، فالمدرس في المدرسة مثل الأب والطلاب أصدقاء وأخوة وأخوات ، وهذا ما يؤثر على فهم الطفل للحياة، و على سلوكه وتعامله مع الآخرين.

2- المعلم

- المعلم قديماً:

منذ القدم النظرة للمعلم نظرة تقدير وتبجيل، وعلى أنه صاحب رسالة مقدسة وشريفة على مرَّ العصور، فهو معلم الأجيال ومربيها ،

مهنة التعليم التي اختارها المعلم وانتمى اليها هي مهنة شريفة و رسالة مقدسة، هي مهنة أساسية وركيزة هامة في تقدم الأمم وسيادتها، وتعزي بعض الأمم فشلها أو نجاحها ومواكبتها للتطور والتحضر الى المعلم وسياسة التعليم . اختلفت النظرة عبر العصور من حيث الأدوار التي يؤديها المعلم. .

- قديماً المعلم لا يملك الا المعلومات التي ورثها من المعلمين السابقين أو المعلومات التي أخذها من بعض الباحثين، وكان يتقن جميع العلوم الدينية والعلمية والأدبية والثقافية، فلا يعرف التخصص . لقد كان تقليدياً، ويلقي الرعب في قلوب الطلاب (إن مرَّ من امام منزل الطالب كان الطالب يفر هارباً من شدة الخوف).

- قديماً كان المعلم يعتمد على اللغة العربية فقط لا وجود للأجهزة الإلكترونية. كان يحمل رسالة التعليم وكانت تثقل كاهله، وتحمله عبء إيصال المعرفة الى الطلاب . إنه الآمر الناهي في كل شؤون طلابه.
- كان هذا المدرس مقدساً، وله كل الهيبة والاحترام من الطلاب ومن جميع أفراد المنطقة، حيث كانت تسود مقولة "من علمني حرفاً صرت له عبداً" مطبّقة بحذافيرها، بل إن بعض الأسر كانت تكرّم المعلّم، وتخوّف الابناء منه، وإذا أرادت أن تشتكي من بعض تصرفات ابنها كانت تشكوه لمعلمه، الذي كان بالفعل المعلّم والمربي وصاحب الرأي السديد..

- المعلم حديثاً :

تطور مفهوم جديد في عصر التربية الحديثة ، وأصبح يُنظر إلى المعلم على أنه معلم ومربٍ في آن واحد، وتقع على عاتقه مسؤولية التعليم والمساهمة الموجهة والفاعلية في التنشئة السليمة للطلاب من خلال الرعاية الواعية والشاملة للنمو المتكامل روحياً وعقلياً وجسدياً ووجدانياً . هذا بالاضافة إلى دوره في مجال التفاعل مع البيئة وخدمة المجتمع والمساهمة في تقدمه ورقيّه.

لذلك يكوّن محور العمل في المدرسة وعمودها الفقري، وترتكز قيمته على وعيه وإلمامه بمسؤولياته الجسام الجديدة والمتطورة والشاملة والمتناسبة مع روح العصر في تحقيق الأهداف التربوية بجوانبها المختلفة .

وبشكل عام النظرة الحديثة للمعلم تتمثل باعتباره معلم تراث ، معلم قدوة ويمثل دعامة أساسية من دعامات الحضارة فهو صانع أجيال وناشر علم ورائد فكر ومؤسس نهضة وإذا كانت الأمم تقاس برجالها فالمعلم هو باني الرجال وصانع المستقبل .

___ الأدوار التي يمثلها المعلم :

يُمثل المعلم في العصر التربوي الحديث عدة أدوار تربوية اجتماعية تساير روح العصر والتطور منها.

- دور المعلم كناقل معرفة :

في هذا الدور لم يعد المعلم موصلاً للمعلومات والمعارف للطلاب ولا ملقناً لهم ، لقد أصبح دوره في هذا المجال مساعداً للطلاب في عملية التعلم والتعليم ، يوجههم للاستعداد للدروس والبحث، مستنيرين بإرشاداته كونه يمثل أمامهم الانسان الكفء الذي يتابع تطور الأساليب التقنية وتكنولوجيا التعليم لنقلها لهم، ولديه القدرة والمهارة الهادفة في معاونتهم على توظيف المعرفة في المجالات الحياتية المتنوعة ،

في هذا الدور تبرز قدرته على صياغة الأهداف الدراسية والتربوية، والعمل على تحقيقها من خلال الدرس والحصة والنشاطات داخل الصف وخارجه، لذا فإنه في هذا المجال يحتاج إلى التطور والتجدد باستمرار ليحقق الأهداف التعليمية.

- دور المعلم في رعاية النمو الشامل للطلاب :

الطالب محور العملية التربوية بأبعادها المتنوعة التي تهدف أولاً وأخيراً للنمو الشامل للطالب روحياً وعقلياً ومعرفة ووجداناً... وبما أن المعلم فارس الميدان التربوي والعملية التربوية فهو مسؤول عن تحقيق هذه الأهداف السلوكية من خلال أدائه التربوي الإيجابي خلال الموقف التعليمي داخل غرفة الصف أو خارجها.

ـــ دور المعلم كخبير وماهر في مهنة التدريس والتعليم :

يسعى المعلم دائماً لتحقيق النمو المهني والتطور والتجديد في مجال الاطلاع على الخبرات المهنية الحديثة والمتجددة في ميدان عمله. لذلك فالمطلوب منه أن يعي الأساليب والتقنيات

الحديثة ليقوم بنقل التطور إلى طلابه بشكل فعال وإيجابي ، كذلك عليه أن يوظف تكنولوجيا التعلم والتعليم المبرمج والأجهزة الإلكترونية.

- دور المعلم في مسؤولية الانضباط وحفظ النظام :

يعتبر المعلم في هذا المجال مساعداً ووسيطاً لتحقيق سلوك اجتماعي إيجابي لدى الطلاب قوامه الانضباط والنظام ، باعتبار أن ذلك لا يتأتى ذلك من خلال الأوامر والتسلط بل من خلال إشاعة الجو الديمقراطي الهادف فيترك للطلاب حرية المشاركة في مشاريع وقرارات حفظ النظام والانضباط في حدود مقدرتهم وإمكانياتهم بشكل عام ، كون المساهمة في صنع القرار تتأتى من احترامه وتطبيقه.

- دور المعلم كمرشد نفسي :

يقوم المعلم بدور إرشادي وتوجيهي للطلبة ورغم ذلك عليه أن يكون ملاحظاً دقيقاً للسلوك الإنساني ، كما عليه أن يستجيب بشكل إيجابي في الموقف الذي تعيق انفعالات الطالب تعلمه، وكذلك عليه أيضاً معرفة الوقت المناسب لتحويل الطالب للإختصاصي النفسي من أجل المساعدة.

- دور المعلم كنموذج :

بغض النظر عما يقوم به المعلم داخل أو خارج الصف، فإنه يعتبر نموذجاً للطلاب . ويستخدم المعلمون النمذجة بشكل مقصود ، فمثلاً العروض التي يقدمها المعلم في مادة التربية البدنية أو الكيمياء أو الفن تعتبر أمثلة مباشرة للنمذجة . وفي مرات عديدة يكون المعلم غير مدرك لدوره كنموذج سلوكي يحتذى به من قبل طلابه.

- دور المعلم كعضو في المجتمع :

المعلم في هذا الدور يجب أن يكون عضواً فعالاً في المجتمع المحلي ، بحيث يتفاعل مع أعضائه فيأخذ منهم ويعطيهم ، لانه في المفهوم التربوي الحديث ناقل لثقافة المجتمع ، فكيف يكون ذلك إذا لم يساهم في خدمة هذا المجتمع: في مناسباته الدينية والوطنية والاجتماعية والرياضية والثقافية... مناسبات الفرح و الحزن ومشاركته يجب ان تشكل مثالًا يقتدى به .

3- وسائل التعليم:

- وسائل التعليم قديماً:

تعددت الوسائل التعليمية القديمة أو التقليدية التي يتبعها المعلم، ومنها:

- الحصص التقليدية التي يعطيها مباشرة للطلاب.
- النقاش المنهجي الذي يطرحه المعلم خلال الحصة التعليمية .
- شرح الدرس من خلال تقديم لوحة توضيحية يدوية الصنع.
- إجراء نقاش منهجي بين الطلاب حول الدرس يطرحه طالب من الطلبة المتواجدين في الصف.
- إجراء نقاش حول لوحة تعليمية جاهزة بين الطلاب والمعلم.
- البحث في المكتبة عن موضوع معين يخص المادة التعليمية.
- استخدام الألواح التقليدية للكتابة وشرح الدرس.
- استخدام مجسمات جاهزة لشرح المواد.

– استخدام خرائط لبعض الدول،وتكون مطبوعة على لوحات خلال الحصة الدراسية للاستفادة منها في الشرح.

– شرح الدروس من خلال كتب مطبوعة ورقياً.

أ– إيجابيات التعليم قديماً:

إنّ للتعليم القديم أو التقليدي إيجابيات قد لا تتواجد في طرق التعليم الحديثة، ومن هذه الإيجابيات ما يأتي:

– تتيح طرق التعليم التقليدية إمكانية التواصل المباشر بين كل من المعلمين والطلاب بشكل حقيقي وعلى أرض الواقع، وبالتالي تتحقق الفاعلية الكاملة للدرس من خلال التواصل الفعال بين المعلم والمتعلم، التي تساهم في نقل المعلومات بشكل مباشر، ويؤثر في ذلك توفر الصوت، والصورة، والمناقشة، والحوار، وإمكانية الاستفسار، والإجابة عن تلك الاستفسارات بشكل مباشر أمام الطلبة.

– تتيح إمكانية التطبيق العملي والفوري داخل مكان الدراسة، حيث يستطيع المعلم أو الشخص المسؤول عن العملية التعليمية نقل المعلومات مع إمكانية تعديلها أو ترتيبها بشكل مناسب، وتطويرها حسب ما يراه فعالاً ويساهم في نقل المعلومة إليهم بشكل جيد، فقد يستعين المدرس بطرق عدة؛ مثل: رسم مخططات بشكل يدوي على لوحات، أو استخدام المجسّمات التي قد تساهم في إيصال المعلومة بشكل أفضل، وبالتالي زيادة محبتهم للمادة.

ب– سلبيات التعليم قديماً:

تتعدد سلبيات وسائل التعليم القديمة ، الأنر الذي دفع العلماء لتطويرها حتى تختفي ويصبح التعليم متكاملاً، ومن هذه السلبيات ما يأتي:

– اعتماد الطالب بشكل كامل على شرح المعلم وعلى المعلومات التي يزوّد بها المعلم الطلبة دون أن يعتمد على نفسه بالبحث عن المعلومة والوصول إليها بمجهوده.

– زيادة عدد الطلبة في قاعات التدريس، ممّا قد يقلل من فرصة وصول البعض إلى المعلومات بشكل جيد وفهمها بالشكل الصحيح.

* وسائل التعليم حديثاً:

أ– الوسائل السمعية، أنعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان بحاسة السمع، وهي من أهم الحواس، وورد الحديث عنها في آيات كثيرة في القرآن الكريم كأداة إدراك واتصال، لذلك تعتبر وسائل التعليم السمعية من أهم الوسائل التي انتشر استعمالها في وقتنا الحاضر، لكونها سهلة الإستعمال ويمكن حملها من مكان لآخر، منها الراديو التعليمي، والإذاعة المدرسية، والتسجيلات الصوتية، والمحاضرات الهاتفية، ومختبرات اللغات. الوسائل البصرية المسقطة ضوئيا، وانتشر في الفترة الأخيرة استعمال الرسوم والصور في التدريس، حيث يتم عرضها بواسطة أجهزة عرض ضوئية مختلفة الأشكال والأنواع، وهي تعتبر من أنواع التكنولوجيا الحديثة التي وجدت لها مكانا في التدريس، فالمعلم يحتاج في كثير من الأحيان إلى عرض المعلومات على شكل رسوم أو صور.

ومن هذه الوسائل البصرية، الشفافيات التعليمية والتي تستخدم عن طريق جهاز العرض داتا شو، والأفلام الثابتة مع أجهزة العرض المناسبة لها.

ب– الوسائل البصرية غير المسقطة ضوئيا، متنوعة ومتوفرة في المجتمع وتحيط بالجميع، ويمكن للمعلم استخدامها بشكل مباشر دون الحاجة إلى استخدام أجهزة العرض الضوئية، ومن هذه الوسائل: الألواح (لوح الطبشور، واللوح المغناطيسي، واللوحة الوبرية، ولوحة الجيوب،

واللوحة الكهربائية، والملصقات، والمطبوعات كالكتاب المدرسي، والرسوم البيانية والتوضيحية ، والكاريكاتير ، والمسلسلات المصورة.

ج- الوسائل التعليمية الملموسة، وهي كثيرة ومتنوعة، لا تحصى ولا تعد لتوفرها في البيئة، منها الوسائل التي خلقها الله سبحانه وتعالى من أحياء (نبات، وحيوان)، جمادات (صخور ، وتراب، وماء وغيرها)، ومنها الوسائل الحقيقية التي خلقها الإنسان (الآلات، وأجهزة البناء، والمصانع). وتوجد هذه الوسائل في مواقع مختلفة:

* المواقع التاريخية والدينية والأثرية من متاحف ومساجد.

* المواقع الاقتصادية من مصانع، ومناجم، ومزارع.

* المواقع الطبيعية من كهوف، وسهول، وجبال، وأودية، وبراكين. د- وسائل التعليم المفرد: من المعروف أن هناك فروقاً فردية بين المتعلمين، فمن الضروري أن تلتزم كيفية التعليم طريقة تتناسب مع ميزات المتعلمين، ومع فروقهم الفردية، بحيث تتيح لكل متعلم التعلم حسب حاجاته، واهتماماته، واستعداداته، وقدراته، وأيضا حسب سرعة الفرد الذاتية في تحقيق الأهداف، ومن طرق ووسائل التدريس هذه:

طريقة التعليم المبرمج، والتعليم بمساعدة الحاسوب، وطريقة الحقائب التعليمية، والمجمعات التعليمية، وطريقة الدورات الصغيرة...

4- أهمية الوسائل التعليمية:

للوسائل التعليمية أهمية كبرى تلعب دوراً كبيراً في العملية التعليمية، وتظهر من خلال ما يأتي:

- تختصر الوسائل التعليمية من الوقت والجهد المبذولين في العملية التعليمية سواءً من قبل المعلم أو المتعلم. تساهم في حلّ المشاكل والعيوب اللغوية واللفظية.
- تساهم في نقل المعارف المختلفة وتوضيح الأمور غير الواضحة، وتزيد من إدراك الطلبة للمعلومات.
- تساهم في زيادة الانتباه لدى المتعلمين وزيادة اهتمامهم بالمادة المطروحة، كما تزيد دقة الملاحظة التي يتمتع بها الطلاب.
- ترسّخ المعلومة في ذهن الطالب، كما تساهم في الزيادة من قدرته على الحفظ، وتزيد من مدى استيعابه للدرس.
- تحفّز الطالب نحو التفكير بشكل مستمر.
- تزيد من مخزون المعلومات لدى الطالب، كما تحدد الكمية المستفادة من الدرس المطروح.
- تجعل الوسائل التعليمية العملية التعليمية سهلة وميسرة على الطالب والمعلم.
- تعد الوسائل التعليمية مادة تعليمية بذاتها؛ كالتلفاز، والرحلات، والأماكن التعليمية الأخرى كالمتاحف وغيرها.
- تساهم الوسائل التعليمية في توضيح وتفسير بعض المفاهيم التي تخص المادة.
- تساعد على التمييز بين الطلاب من خلال قدراتهم اللغوية، وقدرتهم على التعبير الشفوي.
- تساعد على زيادة المخزون العلمي لدى الطلبة، وتزوّدهم كذلك بالمصطلحات الحديثة التي تدل على تلك المعلومات.
- تساهم في زيادة المتعة والتسلية للطلاب من خلال الدروس المعطاة، كما تساهم في بناء شخصيتهم وذاتهم.
- تساهم في زيادة المهارات المكتسبة لدى الطلاب، وتقوّم سلوكهم.
-

5- جيل كامل يواجه خطر الضياع

حديثاً تضرر التعليم بشدة في بلدان كثيرة من أزمات طارئة منها الأزمات المالية والإقتصادية الناتجة عن وباء كوفيد 19، وطفحت نقاط ضعفه الهيكلية عندما تحول الى التدريس عبر الأنترنت اوالتدريس عن بعد ، وتُرك المعلمون والآباء والمتعلمون على حد سواء بمفردهم لشق طريقهم ، وقد أثر هذا سلباً بشكل خاص على شرائح المجتمع الأشد فقراً ، فضلاً عن الأباء والمعلمين الذين يفتقدون المهارات التقنية لتعليم الأطفال. .

وهنا نطرح السؤال التالي : هل الأزمة التربوية والتعليم العام هي نتيجة لجائحة كورونا وما رافقها أو تلاها من مشاكل؟ أم ان الأزمة كانت كامنة وأبرزتها وفاقمتها الأزمات المتلاحقة؟ .

في كل هذه المراحل يبقى المعلم هو أغلى المكاسب وأعلى المطالب، وأرفع المواهب، فهو الذي يُنتفع به ، وكفاه أهله شرفًا أن يرفع قدره عندالله حيث قال عز وجل: ﴿ يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ .

وقوله صلَّى الله عليه وسلَّم: (من يرد الله به خيراً يفقه في الدين) كذلك أحسن كلمة توارثها الناس بعد كلام النبوة، قول الامام علي بن أبي طالب (ع) قيمة كل امرئ ما يحسنه.

فالعلم من القيم التي يحثنا عليها الدين الإسلامي، لذلك نجد الكثير من الآيات القرأنية والأحاديث الشريفة عن قيمة العلم والمعلم :

– قالَ النَبيُّ صَلَّى الله عَلَيهِ وَسَلَم : (فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ).

وقال أيضاً:(إنّ اللَّهَ أوْحَى إليَّ : أنَّهُ منْ سَلَكَ مَسْلَكاً فِي طلَبِ العِلْمِ سَهَّلْتُ لهُ طريقَ الجَنّةِ ومَنْ سَلبْتُ كَرِيمَتَيْهِ أثَبْتُهُ عَلَيْهِمَا الجَنّة وَفَضْلٌ فِي عِلْمٍ خَيْرٌ مِنْ فَضْلٍ فِي عِبادَةٍ) .

كما قال: (صَاحِبُ العِلْمِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الحوت في البحر فالعلماء هم الأموات الأحياء، باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وآثارهم في القلوب والسطور موجودة) وفي أحاديث أخرى :

- (إنّ الله وملائِكَتَهُ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِها وحَتَّى الحُوت فِي البَحْر لَيُصَلُّونَ على مُعَلِّم الناس الخير) .

- (خَيْرُ مَا يُخَلِّفُ الإِنْسانُ بَعْدَهُ ثَلاَثٌ: وَلَدٌ صالِحٌ يَدْعُو لَهُ وَصَدَقَةٌ تَجْرِي يَبْلُغُهُ أَجْرُها وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ بَعْدِهِ).

- (مَنْ عَلَّمَ عِلْماً فَلَهُ أَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهِ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الْعَامِلِ).

- (سَلُوا الله عِلْماً نَافِعاً وَتَعَوَّذُوا بِالله مِنْ علم لا ينفع).

- (مَا مِنْ خَارِجٍ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ إِلاَّ وَضَعَتْ لَهُ المَلاَئِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضاً بِمَا يَصْنَعُ حَتَّى يَرْجِعَ).

- (طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ).